

|  |
| --- |
| خالد العماري الزهراني |
| **الوحي والوعي** |
| قراءةٌ في جوهر الصلة |

**﴿ الوحي والوعي ﴾**

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك **الوحي**؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد **وعيت** عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني **فأعي** ما يقول»

باب بدء الوحي،صحيح البخاري (1/ 6)

فقرات البحث:

* التمهيد.
* المفهوم.
* الصلة الأولى.
* قانون الصلة.
* آفاق الصلة.

## أولاً: التمهيد:

رغم ثراء الجهود التراثية في مسألة العقل والنقل، وضخامة الاشتغال بفلسفة العلاقة بينهما، وعلو قامة المشتغلين بها، وتعدد مجالات الرأي فيها والتأثير، على جميع المستويات المنهجية والمعرفية، إلا أن هناك شعورٌ متزايد لدى البعض بضرورة الانطلاقِ إلى آفاق أوسع وتجليات أعمق، وتأصيلٍ لمنطقٍ آخر يلبي فاقَةَ اليوم وحاجة الغد، ورغبةٍ في تجاوز المواقف الجدلية، والتوجه لمواصلة سير العلم والمعرفة، والشروع في مستوى آخر، يستنطق هداية الوحي ويترجم دراية الوعي، ويسابق عجلة التنمية، ويشارك في صنع المستقبل، ويسهم بفاعليةٍ وأصالة في التدافع الحضاري.

إن هذا الشعور ليدعونا إلى تجديد النظر في جوهر المسألة، وأُس العلاقة بين الله والإنسان، وكُنه صلة الهداية الإلهية بالمدارك البشرية، ومراجعة المصطلحات والمفاهيم والقضايا التابعة لهما.

وإني في هذا البحث لست أعمدُ إلى المفاضلة بين المصطلحات بقدر ما أرجو من تجلية جوهر العلاقة الثنائية، والصلة الجوهرية، وإني لأظن أن كثيراً من العلاقات الجدلية لن تستمر على ماهي عليه، بل قد تطالها عقول أبناء اليوم أو أجيال الغد بمراجعة مصطلحية وتجديدٍ مفهومي، رغم زخمها في كتب الفلسفة والتراث، ورغم غُربة النظر الجديد في الأعراف والمسلمات التراكمية! لاسيما تلك الثنائيات التي دخلنا في أُتونها ورضينا بما قُسم للسابقين من الفهم فيها، واكتفينا باجتهادهم المرتبط بظرفهم دون أن نبذل وسعنا بما يناسب ظرفنا، مع ملاحظة حجم تدافع المصطلحات، وتزاحم المفاهيم، وضخامة التفسيرات، وتقاطع المقولات الدائرة في فلك هذه الجدليات والعلاقات الثنائية، والتي لا تكاد تخلو منها جهود مفكرٍ، أو فيلسوف، أو شارحٍ، أو ناقد، سواء بمحاولة الجمع بين مصطلحين، أو المقاربة بين مفهومين، أو المصالحة بين اتجاهين، بل لقد انقسم تاريخ التراث الإنساني، والإسلامي على وجه الخصوص على هذه الجدليات - التي بعضها من بعض - انقساماً مشهوداً.

ومن الملاحظ أنه رغم قدم هذه الجدليات، إلا أننا لم نلحظ مزاحمةً كبيرةً للمصطلحات القديمة بمصطلحات أكثر حداثةً، أو أعمق أصالةً، ومن باب أولى لم تتصدر مفاهيم، ولا مضامين، ولا قضايا هي أقدر على استيعاب إيقاع الزمن، وأسلَمَ منازعةً وجدلاً، كما في مسألتنا هذه، والتي لم نجد فيها مصطلحين آخرين مزاحمين لمصطلحي العقل والنقل، ولم نجد من ارتقى درجةً ونقل المسألة من المستوى الجدلي إلى المستوى الثقافي أو الاجتماعي أو الحضاري، أو بنى على النظرية فرضية جديدة، أو ضم للحقيقة حقائقَ أخرى ودلائل أقوى، بل غالب ما نراه فيه حظٌ كبير من إعادة وتدوير النزاع التاريخي بنفس الخنادق وذات البنادق، مع توهم استمرار ظروف نشأة الخلاف لكن بشخوصٍ جديدة! وهذا للأسف يعني أن العقول والجهود شابها شيءٌ من الكسل أو الجُبن والبخل، فلم تستطع الإبداع، ولا البناء، ولا النقض ولا الإبرام، ولا حتى التجاوز! بل تحولت المقولات الاجتهادية المتنازعة في هذه المسائل إلى ما يشبه الأدلة القطعية، والنصوص المرجعية القائمة مقام الحق واليقين!

وإني أعتقد أن جدلية العقل والنقل وما ينضم تحت لوائها من أهم فرص التجديد، لا باتجاه النقض بل باتجاه الإبرام لمصلحة الوعي القادم والمستقبل القريب، وألا يغلب علينا الجمود والتمجيد، في مقابل التجديد والتجويد، وقد تفطن لذلك بعض المفكرين المعاصرين، فمثلاً: يقول أبو يعرب المرزوقي عند حديثه عن فكر ابن تيمية الإصلاحي ونقده للجهود الإصلاحية التي وقفت عند الاجتهادات التاريخية ولم تتجه لجوهر الإصلاح الفكري: "هناك أمور عرضية ناتجة عن التزام ابن تيمية بالفعل التاريخي ودخوله في المعارك المباشرة التي خاضها والتي هي ليست جوهر فكره الإصلاحي بل هي مجرد استجابة لمتطلبات الظرف"[[1]](#footnote-1)، ومن ذلك في ظني مسألة العقل والنقل – رغم ما أبدعه ابن تيمية وغيره في الجمع بينهما - وهذا هو عينٌ ما أردناه هنا، وهو أن نعود لجوهر الصلة، وأُس المسألة بعيداً عن الإكراه الظرفي لجهود المعالجة والتنظير في زمنٍ ما، وأن نستنطق الوحي الخاتم، ونستلهم هدايته في العلاقة بين مراد الخالق وفهم المخلوق، وأن نبني على اجتهاد من سبق، وألا نقف عن الاقتراب من الصواب، ولا البحث عن أحق الحقين، وأصدق الصدقين، وأيقن اليقينين، وأن نكون على وعيٍ بظرفنا وبهداية ربنا وتنزيلها على واقعنا وحالنا، وألا نصاب بالجمود أو الغفلة، وألا يكون ظاهر وعينا هي حقيقة عِيّنا، ولا صورةُ إلهامنا هو جوهر إيهامنا!

## ثانياً: المفهوم:

إن دراسة مصطلحي الوحي والوعي من حيث الورود في معاجم اللغة، وفي استعمال القرآن والسنة، يثير التفكير، ويسترعي الانتباه، ويلفت الأنظار لجوهر هذه الصلة؛ إذ أن هذا التقابل اللفظي الرائع أصيلٌ وعميقٌ في المعنى والدلالة.

فمفهوم الوحي الخاص[[2]](#footnote-2) المتعلق بالنبوة هو كما عبر عنه أهل العلم: بأنه كلام الله - تعالى - المنزَّل على نبي من أنبيائه، وإعلامهم بالشرع والدين، وهذا تعريفٌ له بمعنى اسم المفعول؛ أي: الموحى، وهو: "أن يُعَلِّمْ الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر"[[3]](#footnote-3) أو كما عبر عنه بعض الدارسين بأنه: "إلقاء الله الكلام أو المعنى في نفس الرسول، بخفاءٍ وسرعة، بملك أو دون ملك"[[4]](#footnote-4).

وفي بحثنا هذا نعني الوحي المحمدي الخاتم قصراً، وهو ما في القرآن أصالةً والسنة الصحيحة تبعاً وتبياناً من: ألفاظٍ ومعاني، وأسماءٍ وأحكام، ودلالاتٍ وكمالات، ومطالب وغايات، وأمرٍ وخبر، ووعدٍ ووعيد، وما أشبه ذلك، وهو النص الإلهي الخاتم المهيمن الحاكم على كل نص {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة: 48].

هذا هو الوحي، وأما الوعي فأصله ضمُّ شيءٍ باستيعاب، كما يدل عليه مجمل استعمال العرب، وإن كان الخليل بن أحمد عَبَّرَ بالحفظ كأصلٍ لمادة الوعي[[5]](#footnote-5)، واللَّيْث[[6]](#footnote-6) تكلم عن وعي مخصوص وهو: حفظ الْقلب للشَّيْء[[7]](#footnote-7)، وابن فارس حصر استعمال العرب لهذه المادة في أصل واحدٍ وهو ضَمِّ شَيْءٍ[[8]](#footnote-8)،إلا أننا بعد الدرس والمقارنة نستطيع القول: بأن الضم المراد في مادة الوعي هو ضمٌ مخصوص، وليس مطلق الضم، أو شيءٌ زائدٌ على مجرد الضم، لأن مطلق الضم يدل على الملائمة بين شيئين[[9]](#footnote-9)، أما الضم المراد في الوعي فهو القاصد للاستيعاب والإحاطة وهذا ما يدل عليه استعمال العرب لمادة (و ع ى).

ومن حيث المفهوم فالوعي كما عَبَّرَ عنه بعض علماء التفسير بأنه: **العقل عن الله، والانتفاع بكلامه،** قال قتادة في قوله الله: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الحاقة: 12]، قال: "أُذُنٌ عَقَلَتْ عن الله، فانتفعت بما سمعت من كتاب الله"[[10]](#footnote-10)، وعرفه بعضهم بأنه: "الفَهْمُ البليغُ"[[11]](#footnote-11)، وعرفه آخرون بأنه: "إدامة الحفظ وعدم النسيان من سامعٍ، لما رُزق من جودة الفهم وكمال العلم والمعرفة."[[12]](#footnote-12)، وليس الوعي مقتصراً على الحفظ كما هو شائع، لأن الله تعالى تكفل بحفظ الوحي، وصرف هَمَّ النبي عليه الصلاة والسلام إلى طلب الزيادة في العلم بمعاني الوحي ومراداته، قال الله: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: 114]، بل نُهي النبي عليه الصلاة والسلام عن العجلة في حفظ النص، لأن الله تكفل بجمعه في صدر النبي صلى الله عليه وسلم وإثبات قراءته في لسانه، بل وبيان ما أشكل عليه من أمره {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَك لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19) } [القيامة: 16 - 19]، إذاً فالتعبير عن الوعي بالحفظ فيه تساهل، أو اقتصارٌ على ماله أولوية في عصر الحفظ والتدوين، أما لو نظرنا في حال النبي صلى الله عليه وسلم في تلقي الوحي لوجدنا أنه دائرٌ بين ثلاثة أفعال: الإصغاءُ والاستماع أولاً، ثم الوعي ثانياً، ثم التبليغ والأداء والبيان لما أشكل ثالثاً، ولو تأملنا في هذه الأفعال لوجدنا أن الإصغاء شرطٌ للوعي، والوعيُ موجبٌ للتبليغ، وعليه فالمدارٌ والمحور هو الوعي، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع"[[13]](#footnote-13)، لأن الغاية المقصودة هي البلاغ لمضمون ومعاني الوحي، وغاية البلاغ أن يصل الوحي نصاً إلى من هو أوعى، فنضمن بقاء حيوية الوحي، وفاعلية الوعي على تجدد المكان والزمان والحال.

ومادة (و ع ى) في معجم الحديث الشريف وردت بصيغ متعددة[[14]](#footnote-14)، وبعض ما ورد يدل على أن وعيَ النبي صلى الله عليه وسلم هو حالة كمال بشري في تلقي الوحي، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا.[[15]](#footnote-15)

يتنزل الوحي على النبي عليه الصلاة والسلام في صور شتى أشدها أن يكون مثل صلصة الجرس، فيكون السمع هو المنفذ الأول والأهم لعلوم الوحي خاصة، وبعده الفهم والعَقْلُ والحفظ، لكن التعبير بالوعي في الحال التي يكون عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن يفصم عنه الوحي له دلالةٌ خاصة لاسيما وقد ورد الوعي بصيغتي الماضي والمستمر، وفي ذلك يقول الحافظ ابن حجر: "وقد وقع التغاير في الحالتين، حيث قال في الأول وقد وعيت، بلفظ الماضي، وهنا فأعي، بلفظ الاستقبال؛ لأن الوعي حصل في الأول قبل الفصم، وفي الثاني حصل حال المكالمة، أو أنه كان في الأول قد تلبس بالصفات الملكية فإذا عاد إلى حالته الجبلية كان حافظاً لما قيل له، فعبر عنه بالماضي بخلاف الثاني فإنه على حالته المعهودة"[[16]](#footnote-16)، وفيه دلالة على شرف حالة الوعي البشري في تلقي الوحي الإلهي، حتى عندما يتمثل الملك في صورة رجل يكلم النبي عليه الصلاة والسلام بالوحي فإن حاله عليه الصلاة والسلام هي أيضاً الوعي.

هذا الوعي المتعلق به صلى الله عليه وسلم، والموصوف به عند تلقيه للوحي، وهو المطلوب في حق من هم دونه صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى: {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الحاقة: 12]، بعدما قص علينا وحياً من أخبار الأمم السالفة، فالوعي في فعل "تعيها"، وفي صفة "واعية"، دليلٌ على أن الوحي بعمومه، والإخبار عن الغيب لا يُتلقى إلا بالوعي، و"الوعي توصف به الأذن كما يوصف به القلب، يقال قلبٌ واعٍ، وأذنٌ واعية، لما بين الأذن والقلب من الارتباط؛ فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب، فهي بابه، والرسول الموصل إليه العلم، كما أن اللسان رسوله المؤدى عنه، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها ان توصف بالوعي وأنها إذا وعت وعى القلب"[[17]](#footnote-17).

الوعي هو المطلوب الأول أيضاً ممن سمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لحديث: «نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، فأداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع ورب حامل فقه وليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[[18]](#footnote-18).

ولأن المعنى هو المقصود من النص، أكد العلماء على الفهم والوعي والاستيعاب لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع حرصهم على اللفظ بطبيعة الحال، إلا أن السنة ليست كالقرآن في حفظ ألفاظها، ولذلك جاءتنا المعاني بألفاظٍ مختلفة عن الأئمة الثقات، بل جوز بعضهم نقل المعنى وإن اختلف اللفظ، وهو أحد المذهبين المشهورين عن الأئمة، قال ابن الأثير رحمه الله: "وعلى ذلك جماعة من أئمة الحديث، لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره، حتى إنهم يسمعونه ملحوناً ويعلمون ذلك، ولا يغيرونه، وذلك هو الأحوط في الدين، والأتقى والأولى، ولكن أكثر العلماء على خلافه،والقول بالجواز هو الصحيح، فإن الحديث كذا وصل إليهم، مختلف الألفاظ، متفق المعنى، ونعلم قطعاً في أحاديث كثيرة ذكرها النبي - صلى الله عليه وسلم - وقت واحد، ونقلها الصحابة بألفاظهم المختلفة"[[19]](#footnote-19).

هذا هو مفهوم الوعي في مقابلة الوحي، وهو بمعنى ضمُّ النص وحفظه وفهم المعنى واستيعابه، والناس في ذلك درجاتٌ متفاوته، ولذا وجب عليهم نقل العلم والتبليغ وتوسيع دائرة من يصل إليه الوحي ومن يسمع به، لعله أن يصل إلى من هو أكثر وعياً من النقلة، فيستنطق لفظه، ويستلهم روحه، ويثوره، ويستخرج كنوزه، ويفيض بمعانيه على نفسه، ويسقي من حوله، فتحيا الأرض بنور ربها، وهدايات خالقها، {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: 52].

وقد كان كثير من الرواة من الصحابة ومن بعدهم يعبرون بالوعي للدلالة على قوتهم في الرواية والدراية والتوثيق والنقل عن رسول الله بإدراك وفهم، فيقولون عند التحديث "سمعته أذناي، ووعاه قلبي" كما وقع من عبدالله بن عمرو بن العاص، وسعد بن أبي وقاص، وأبي بكرة، وعمرو بن عبسة، وأبي شريح العدوي[[20]](#footnote-20)، وأُشتهر عن قتادة رحمه الله أنه كان يقول: "ما سمعت أذناى شيئا قط إلا وعاه قلبي"[[21]](#footnote-21).

يقول الحافظ بن حجر رحمه الله في قولهم "وعاه قلبي": "تحقيق لفهمه وتثبته، وقال: ويؤخذ من قوله " ووعاه قلبي " أن العقل محله القلب"[[22]](#footnote-22).

العبرة بالآذان الوعية، والبصائر الراعية، وأصحابها في الناس قليل، بل أقل القليل، لكنهم هم قادة الناس على الحقيقة، ونُظار الفكر بلا شك، والمؤثرون على التوجهات والأفكار، قال الزمخشري رحمه الله في تفسير قول الله: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الحاقة: 12]، قال: "فإن قلت: لم قيل: أذنٌ واعية، على التوحيد والتنكير؟ قلت: للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يبالى بهم باله وإن ملئوا ما بين الخافقين"[[23]](#footnote-23).

## ثالثاً: الصلة الأولى:

ما أول الإنسان؟ ومن الإنسان الأول؟ هذان السؤالان رغم البداهة والضرورة والإلحاح الكامنة فيهما إلا أن كثيراً من الفلسفات والنظريات قد قفزت عليهما، وتجاهلتهما بقصدٍ أو بدون قصد، ولكنّ قانون الأولية لم يقفز من الأذهان، ولم يخرج من العقول، ولم يُطمس من النفس البشرية، ولذا ففي مسألتنا هذه نسأل بكل وضوح: ما أول صلةٍ بين مراد الله وفهم الإنسان؟

وللجواب نقول بأننا لو تأملنا قصةَ آدم عليه السلام أول البشر، لوجدنا أنه بعد خلق الله له ونفخ الروح فيه، ألهمه الله وعلمه وخاطبه، ألهمه الأوليات والقوى الضرورية، وعلمه الأسماء كلها، وخاطبه بالأمر والنهي، وهذه كلها داخلةٌ في مفهوم الوحي الإلهي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن هذه النقطة تحديداً نكتشف جوهر الصلة، وأُس المسألة، وأصل العلاقة بين الوحي والوعي؛ إذ أن الوحي الأول هو خطاب الله تعالى لآدم، وبهذا الخطاب اجتمع الخلق والأمر الإلهي في آدم؛ فالله خلقه ونفخ فيه الروح، فتجلى فيه الكمال من جهة الخلق، ثم خاطبه وحياً بالأمر والنهي والوعد والوعيد فتجلى فيه الكمال من جهة الأمر؛ وبقي على آدم الاجتهاد في الاتباع في كل حياته وحالاته، وهكذا انتقلت هذه العلاقة وهذه المعادلة إلى بني آدم، ولم ولن تنفك عنهم أبداً؛ ولذا فإن كل موافقةٍ لمراد الخالق سبحانه في أمره تنطق بها ألسنة البشر أو تتجه لها مراداتهم أو تقع عليها أعمالهم، هي من بركة هذا الأصل وهذه الصلة، وهي دليلٌ على بقاء خِلْقَةِ الله وفطرته وأصل مراده وحكمته في النفوس التي لا يمكن أن تتبدل وإن طالها التغيير واجتيال الشياطين، قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن الله - تبارك وتعالى -: (إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ([[24]](#footnote-24).

هذه هي الصلة الأولى، التي ينبغي تدبرها وتأملها جيداً، ويجب الانطلاق منها في بناء المفاهيم لنظام الوحي الإلهي والوعي الإنساني، وإن وصف الوحي الخاتم لاصطفاء الله لآدم وتعليمه وأمره ونهيه وابتلائه، واستخلافه في الأرض، واستجابته، وسلوكه في الجنة، ومعصيته، وتوبته، وتجليات قصة آدم عليه السلام وأبعادها لهي مفاتيح يقينية أولية لفهم علاقة الله بالإنسان، وصلة الوحي الإلهي بالوعي الإنساني، وإن كلَّ فلسفةٍ تتجاهل هذه الأوليات اليقينية التي دل عليها الوحي لتجد نفسها في مرحلة من المراحل مضطرةً إلى ابتداع ما يحل محل هذه الأوليات ويقوم مقامها من تصورات ظنية، ومفاهيم محتملة، تثمر جملةً من الفرضيات والمصطلحات المضطربة.

وإن وصف الوحي الخاتم لإهباط الله تعالى لآدم وزوجه وإبليس إلى الأرض هو مفتاح فهم قصة الإنسان في الأرض، ونشأة المجتمع البشري، وعلاقة الإنسان بظرفه المكاني والزماني والحالي، واجتهاده في الاستجابة لهدى الله تعالى وترجمة هداه ضمن هذا الظرف.

ولذا فإن النظريات التي لم تنطلق من مركزية قصة آدم ما قبل الإهباط إلى الأرض اضطرت لابتكار عالمٍ للمثل ومدنٍ خيالية للحق والخير والجمال، والنظريات التي لم تنطلق من مركزية قصة آدم ما بعد الإهباط اضطرت لابتكار أصل الوجود الإنساني في الأرض، والنظريات التي لم تنطلق من مركزية المستقر والمتاع وقعت في الجدليات الزمانية والمكانية، والنظريات التي لم تنطلق من مركزية العداوة مع الشيطان تباينت في تفسير الشر الواقع في العالم وتحديد العدو ومعيار العداوة، والنظريات التي لم تنطلق من مركزية الهداية الإلهية اضطربت في ابتكار مناهج ومفاهيم ومضامين بشرية لدلالة البشر على الكمالات والمعاني!

وفي موضوع المعنى والمفهوم الملازم لكينونة الإنسان وحياته، نجد أن الإنسان منذ وُجِدْ وهو دائرٌ بين مطلوب من خارجه، ومرغوبٌ من داخله، وأعلى مطلوبٍ ما كان من الخالق سبحانه، وأَدنى مرغوبٍ ما طلبته النفس وسوس به الشيطان، فهو بين سلطتين، وبين خطابين، ويبقى فعلُ الإنسان واختياره مترددٌ بين ذا وذاك، وذلك بحكم سنةٍ وحكمةٍ كونية قدرية تجمع بين إلهية الخالق وعبودية المخلوق، وبين أمر الرب واختيار العبد، وبين الإلهام القسري والكسب الطوعي، وبين هداية الوحي واستجابة الوعي، وهذه العلاقة هي عينها ما يُفسر ما وقع لأبينا آدم عليه السلام في أول الأمر، قال الله: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ} [البقرة: 35، 36].

ومع ظهور استقلال فعل الخالق وطلاقته، وتبعية فعل المخلوق ومحدوديته، وظهور التوافق بين الكوني والشرعي في هداية الوحي، إلا أن كثيراً من الأطروحات الفلسفية ضخّمتْ الكلام عن حالات النشاز، وصور اختلال العلاقة، وكثيرٌ منها قائمٌ على افتراض التكافؤ أو التنازع بين طرفي العلاقة، فظهرت النظريات الوجودية التي لاتؤمن بالإله، والمادية التي لا تؤمن بالقدر، والعبثية التي لا تؤمن بالحكمة، والنسبية المطلقة التي لا تؤمن بقيمةٍ مركزية في الوجود، وظهرت منظوماتٌ معرفية فيها ألوانٌ من الوهم البشري المُنْبَتّ عن حقائق الوحي وهداية السماء، والتي لازال جديدها ينقض قديمها بشكلٍ يدعو لإعادة النظر في أصل العلاقة، وجوهر الصلة.

وحتى مع القفز على قانون الأولية، فإن العقول المنظِّرة قد دأبت على تعظيم منطقها، وتأصيل نظرها، وتعميق حالتها في الفكر الإنساني والكينونة البشرية بقدر استطاعتها، لأن العقول المستَقْبِلة لا تفتأ تقول لكل مُنَظّرٍ: من أين لك هذا؟ وما أصله البدهي؟ وما وجهه العقلي؟ وما أوله؟ وما آخره؟

ما أول الزمان؟ وما أول المكان؟ وما أول الإنسان؟ وما أول الهداية؟ وما أول الوعي؟ هذه أبرز الأسئلة المركزية التي شغلت الفكر الإنساني على الإطلاق، ولأن الإنسان ليس خلق نفسه، ولا مصدر ذاته، ولا منبع هدايته، فإنه بطريق الاضطرار يعود في تفسير الكينونة للعلاقة بينه وبين قوةٍ وسلطةٍ خارجةٍ عنه، ويظل يحاول الجمع بين الحقائق الماثلة أمام بصره وبين ما يرى أنه الحق في بصيرته، لكنَّ ابتعاده عن هداية الوحي - في كثير من المحاولات التفسيرية والتنظيرية - يقع في محاولة الترجيح بين أقوال نُظَّارٍ سبقوه في محاولة الجمع بين طرفي العلاقة، ويجد نفسه في الغالب بين ثلاث طرائق تفسيرية، اثنتان منهما حدية، والثالثة توفيقية، فالأولى طريقة من شعر بالعجز في أمام القوى المطلقة، فانطلق من مشيئة الخالق وتجاهل كينونة المخلوق، وضدها طريقة من وثق في قوة الذات، فعظم العقل -كما يدعي- وتجاهل واهب العقول والمعقول! والثالثة الطريقة التوفيقية وهي التي حاولت الجمع بين سلطة ومنطوق الخالق من جهة، وسلطة ومنطق المخلوق من جهة أخرى، فأعملت فكرها في النص المقدس السماوي أو ما يسمى النقل، وفي التصور والانطباعات البشرية أو ما يسمى العقل، وحاولت التوفيق والمصالحة بينهما.

والطريقة التوفيقية هذه موجودة في الأديان والفلسفات كلها، إلا أنها متفاوتة -إسلامياً- بين تقديم النقل – كما يسمونه - وتفويض المعنى، أو تقديم العقل وتأويل النص، أو التأكيد على عدم التعارض بين النقل والعقل، وتوجيه الجهد لطرائق الجمع وهذا هو أفضلها وأصحها، لكننا لو فكرنا في جوهر الصلة التي بُني عليها هذا التوفيق لوجدنا أنها صلةٍ افتراضيةٍ ليست حقيقية، وعلاقة مغلوطة وليست يقينية، وعليها كان تناول هذه المسألة هو عبارةٌ عن جدل عريض ممتد.

وفي الحقيقة أننا لو نظرنا في الوعي الإنساني لوجدنا أنه ليس منبتاً عن الوحي الإلهي وليس مستقلاً عنه بحال من الأحوال؛ وذلك بحكم الكينونة وقانون الخلق {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: 54]، {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: 14].

إن الإنسان بحاجة للتجديد عموماً، وفي المفاهيم المركزية على وجه الخصوص، بحاجة للتجديد الذي يقربه من الحقائق ويباعده عن الأوهام، ويكشف له البصر ويجلي له البصيرة أكثر من ذي قبل ليرى الواقع ويهتدي للمتوقع، ولا تجديد إلا بالعودة لأصل الكينونة، وأول الأمر، ثم النظر في المفاهيم والمقاربات التاريخية وتقييم علاقتها بالكينونة، وفاعليتها للظرف الكائن، وصلاحها لما سيكون، عنئذٍ لا وصاية إلا للحق، ولا نكاية إلا في الباطل، وما بينهما مجال متفاوتٌ للنظر والاجتهاد المتجدد، ومتسعٌ للوعي والفكر المستوعب، الذي يقترب بحسب اجتهاده من الحق والحقيقة في زمان دون زمان، ومكان دون مكان، وحالٍ دون حال.

إن الوحي هو مصدر أوليات الإنسان والحياة والكون، ومن رحمة الله بنا أن تكون هذه الأوليات مدعومةً بنظمٍ عدة، فالخلق نظام، والتسوية نظام، والروح نظام، وتعليم الأسماء نظام، والعهد والإشهادُ نظام، والفطرة نظام، والآيات نظام، والنبوات نظام، وكل ذلك متضمنٌ في الوحي الخاتم ولاشك.

ألا يحق لنا أن نجدد مفهوم الوعي، ونراجع الصلة بالوحي، بعد كل هذه الأنظمة المتعلقة بالكينونة الإنسانية؟! وكيف يجوز لنا أن نركنَ إلى فرضياتٍ ومقولاتٍ بلا أنظمة كونية ولا دعائم فطرية، ثم نسمي هذا عقلاً ومنطقاً فطرياً، ثم نُجهِدُ أنفسنا في موائمة مفاهيم النقل حتى يقبلها هذا العقل!.

إن قانون الأولية هذا يفسر لنا من زاويةٍ أخرى ما في كتب الأديان والفكر والفلسفة من المقولات المطابقةً لما في منطوق أو مفهوم الوحي- لاسيما في المسائل التي لا تدرك أصالةً بالنظر والتفكير المجرد- إذ أن ذلك لا دلالة له من وجهة نظري إلا:

1. أنه مما بقي من أصل الخطاب الإلهي والهداية الربانية لآدم عليه السلام والأنبياء من بعده.
2. وأن فيه دلالة على مخبوء الفطرة الإنسانية، وبقايا خِلقة النفس السوية، وأثر نفخة الروح، وذكرى عهد الإشهاد بربوبية الخالق[[25]](#footnote-25) ولاشك.
3. أنه ليس بأكمل في المعنى، ولا أهدى في اللفظ، ولا أوفى للسابق، ولا أقدر على اللاحق مما في الوحي الخاتم من ألفاظٍ ومعانٍ وسلطةٍ مهيمنة على غيره، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة: 48].

## رابعاً: قانون الصلة:

القياد في الطبائع والشرائع لا يكون إلا لجهةٍ ممايزةٍ عن العقل البشري ومتقدمةٍ عليه، لا أن يكون الإنسان ذاته هو من يبدع قياد ذاته، إذ أنه عند افتراض ذلك يبرزُ سؤال كبير: أي عقلٍ له القياد؟ وأي إنسانٍ هو الأول؟ وأي ميزانٍ هو الحَكَمْ؟! و لذا فإن الجدليات التقليدية في زحمة التدافع الفكري والفلسفات الشمولية افترضت بأن العقل في مقابل النقل، وتوهمت الإنسانَ في مقابل الله، وابتلعت مقدمةً مغلوطة، وهي: أن فعل المخلوق يمكن أن يستقل عن إرادة الخالق، وأن فَهْمَ الإنسان مُنبَتٌ عن مراد الله، وعليه كان الجدل عبر التاريخ في محاولة الجمع بين طرفين متكافئين ومحاولة تَبيُن التابع من المتبوع! ومعرفة القياد هل هو أرضيٌ أم سماوي؟! وبيان المساحة المستقلة لكل طرف وتوزيع السلطة والنفوذ بينهما، فماذا لله وماذا لقيصر؟! وبعض المنظرين جعل الخالق والمخلوق في رتبةٍ واحدة، ثم افترض التنازع بينهما، ثم تجرأ وقدم المخلوق على الخالق ! والبعض الآخر أكل الطُعم وبدأ يمارس دور الوساطة بين الخالق والمخلوق، وبعضهم وجد نفسه وجهده ونتاجه الفكري في المصالحة بين الطرفين! وبعضهم انتهى به المطاف إلى فصل الأرض عن السماء، أو إلى اختزال الله في البركة، والإنسان في الحركة!

مع أن المعادلة ليست كذلك.. المعادلة ليست بين متكافئين في القوة، ولا متساويين في العلم، ولا متماثلين في القدرة، ولا متشابهين في الإرادة، المعادلة الصحيحة هي بين خالقٍ ومخلوق، وكاملٍ وناقص، وقادرٍ وعاجز، وقويٍ وضعيف، ومطلقٍ ونسبي، ومهيمنٍ ومحدود؛ ولذا فالنظر لهذه الجدليات لابد أن يكون على أساس ذلك، ولابد أن يتحول الجهد من محاولة الجمع بين الخالق والمخلوق، إلى المقارنة بين المخلوقين في ضوء هيمنة الخالق، وعندها نقول: أي عقل هو أقرب لمراد واهب العقول؟ وأيُّ وعيٍ بشري هو أوعى للوحي الإلهي؟ وأي استجابة هي أمثل لمراد الآمر سبحانه؟ ونحو هذه الأسئلة، ونعرض لكل جدلية تاريخية فنطبق عليها هذا المنطق وهذه المعادلة: "نمايز بين الخالق والمخلوق وننطلق من ثلاثية الأطراف لا من ثنائيتها" فليس الله والإنسان طرفي معادلة، بل الله حَكَمٌ بين الإنسان والإنسان، وأن يكون الوحي في مكان العلو، وتصبح المعادلة بين عقلٍ وعقل، وفهمٍ وفهم، أيهما أوعى للوحي؟ وأيهما أكثر استيعاباً للظرف المستنطق لهداية الوحي؟ وأيهما أقدر على التفاعل الظرفي بثنائية الوحي والوعي؟ ونتيجة هذه المعادلة بالطبع ليست في طرفين وحدين فقط، يمينٌ ويسار، لا، بل في طرفين وبينهما درجات متفاوتة، فهذا الوعي أقرب من هذا، وهذا الوعي أبعد من هذا، وذلك لأن المسألة كما ذكرنا حيوية متجددة نسبية على الدوام، والحق، والوحي، ومراد الله تعالي يقترب الناس منه في ظرفٍ دون ظرف، وحالٍ دون حال، وأوفرهم حظاً من كان متجدد القرب كلما تجدد الظرف والحال.

ولذا عندما نعرف الوعي تعريفاً مجرداً نقول بأنه: إدراكٌ كليٌ، مستوعبٌ للمعاني المرتبطة بالذوات والبيئات والعلاقات، يبعث على القيام بالواجب وأداء الحق باستمرار وحيوية.

وهو مفهومٌ يقصد للمعاني الكلية، ولا يهمل التراكيب الجزئية، وبين الوعي والعلم وفاقٌ وافتراق، فهو مرادفٌ له في الجملة، لكن هناك فرقٌ بين مطلق العلم بالشيء والوعي به، فمطلق العلم أوله: ارتفاع الجهل الجزئي، وقانونه السلطان والحُجة والبرهان، وغايته الأظهر والأقرب الخشيةُ، إذ أنه كلما زاد فضاء علم الإنسان انحسرت رقعة المجهول لديه، وقام باعث الاعتراف بالخالق المدبر العليم الخبير وسعة علمه وإحاطته فيثمر ذلك تواضعاً وخشية في نفس الذات العالمة ولابد.

وأما الوعي فأوله العلم الكلي بالشيء على وجه الاستيعاب، وقانونه الفهم المتجدد بتجدد الهدية والدراية، وغايته الأظهر والأقرب البصيرة، إذ كلما تجلت الكليات وتجمعت في الذهن، ظفر الإنسان بما يَلُمُّ عقله وشتاته بنواميس وقوانين منسجمة تحكم عالمه المتنوع والمتمازج، ومع تعاضد هذه الكليات، وانتظام هذه القوانين يمنح الإنسان خبرةً وبصيرةً وتذكرةً في التعامل مع ما فوقها حجماً، وما بعدها وقوعاً، ولذا قال الله تعالى {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الحاقة: 12]، بعدما قص علينا قصة ثمود وعاد وفرعون ومن قبلهم، والمؤتفكات بالخاطئة وما حصل لهم، والوعي المطلوب هنا ليس لازمُهُ العلم التفصيلي بأخبار هذه الأقوام، بل شرطه العلم الكلي الذي ينقلك من التصديق والتحقق إلى المقصود والمعنى الحق وهو العبرة والاتعاظ والتذكر، وذلك أن قانون العلم التمييز، وقانون الوعي الترميز القاصد للمعنى المشترك، فإذا أردت العلم بشيءٍ فلابد أن تميزه عن غيره، وكلما زاد تمييزك له عن غيره زاد علمك به، ولذا فإن العلم يجنح للسؤال عن الجزئي والتعمق فيه وسبر أغواره، ويعتمد على الحفظ وأدواته أكثر من اعتماده على الفهم وأدواته، أما أن تتحول هذه الأشياء لتصبح جملةً ملمومةَ الشتات ومعنى ً كلياً ورمزاً للدلالة على أمرٍ حيوي مستمر يصدق على كل مثال قادم مهما انقطع سبب المثال الأول أو داعيه فهذا هو الوعي.

فتمييزك لمكان عن مكان، وزمان عن زمان، وحال عن حال، هذا علمٌ بالمحددات المكانية والزمانية والحالية، لكن أن يتحول المكان أو الزمان أو الحال ليصبح رمزاً للدلالة على معانٍ ومراداتٍ كليةٍ مقصودةٍ تبقى في الذهن حاضرةً مستمرة وإن غابت محدداتها الثلاث فهذا وعيٌ، وارتباطٌ بالكلي حتى مع غياب الجزئي، وهو مرتبة فوق العلم ولاشك، وتأمل معي حديث أبي بكرة رضي الله عنه، قال: خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر، قال: «أتدرون أي يوم هذا؟» ، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، قال: «أي شهر هذا؟» ، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال «أليس ذو الحجة؟» ، قلنا: بلى، قال «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض»[[26]](#footnote-26)، وأني لأجد في هذا الحديث الشريف بُغيتي ومرادي في التفريق بين العلم والوعي؛ أذ أن النبي عليه الصلاة والسلام أراد ايصال معنى كلي حيوي مستمر، هو من جوهر البلاغ النبوي الذي يُشهد أمته عليه، ألا وهو "إن دمائكم وأموالكم عليكم حرام"، ولذا لم يقصد للإدلاء بهذه المعلومة مباشرةً، بل ربطها ربطاً ثلاثياً بالوعاء الذي قُدّر لابن ادم العيش فيه، ربطها بالحال "يومكم هذا " الذي هو يوم النحر، والمقصود أن أظهر حالهم في هذا اليوم هو نحر الهدي والأضاحي، ولذا سمي ب "يوم النحر"، وبالزمان "شهركم هذا"، وبالمكان "بلدكم هذا"، ليصل بهذا الثلاثي الظرفي إلى المعنى والغاية والمقصود الكلي: "إن دمائكم وأموالكم عليكم حرام "، وما هذه الثلاث مجتمعة إلا رمز لهذا التحريم إذ أنها محرمة في ذاتها، فذي الحجة من الأشهر الحرم المميزة عن باقي الأشهر بالتحريم، ومكة محرمةٌ عن باقي البقاع، والحاج متلبسٌ بالإحرام حتى يؤدي النسك فيصبح حلالاً، ولذا فعلم الصحابة رضوان الله عليهم بمكانهم وزمانهم وحالهم هذا علمٌ أول، وسماعهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن دمائكم وأموالكم عليكم حرام" علمٌ ثاني، والوعي بالدور المطلوب والغاية المقصودة، والحرص على بقاء المعنى الكلي الحيوي بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس هو علمٌ ثالث قد لا يستوعبه كل من شهد اللحظة، لكن قد يعيه من غاب عنها ونُقل له، ولذا كان الحاضر "شاهداً" و "سامعاً" وهما كفيلان بالوعي إذا حضر القلب، لكن أقل أحوال هذا الأول أن يكون "مبلغاً " لهذا العلم إلى من كان غائباً لعله أن يكون "أوعى" له ممن سمعه أول مرة، فالعبرة بمن هو "أوعى" أي أكثر وعياً بهذا المعنى الكلي والمقصود الأعظم مهما تغيرت الأبعاد الثلاثية، لأنه قد يقع في الناس من يكون عارفاً بالشهر الحرام والبلد الحرام واليوم الحرام ويرجع مُلحداً يستبيح الدم والمال!

الوعيُ له هذا السر، وهذه الخصوصية؛ ولذا لابد من تفعيل هذه الثنائية الغائبة "الوحي والوعي" التي لم أر على حد علمي من أظهرهما مقترنتين ببعضهما البعض، بل في ظني أنه تم استبدالهما بجدلية العقل والنقل المفروضة على العقل المسلم في سياق من الشعور بالتبعية والضعف لما سماه الآخرون منطقاً وعقلاً!

وإنهما – أي الوحي والوعي- لمصطلحان جديران بمزاحمة مصطلحي "العقل والنقل" لما لهما من الصلة الأولية المرتبطة بالكينونة، ولما فيهما من البراءة من إكراهات التاريخ، ولما بينهما من علاقة تراتبية تفاضلية، لا علاقة تكافؤية تنازعية، ولما لهما من الدلالة على مصدرية الحق الواحد، و العلاقة بالخالق لا المنازعةٍ له، ولقدرتهما على الإجابة على أسئلة الوعي الكبرى والحسم في مسألة: هل يتلقى الإنسانُ الأسماءَ والمعانيَ والمطالبَ والكمالاتَ من النقل؟ أم أنه بفكره وملكته وعقله يستطيع ابتكار الأسماء والدلالات واكتشاف المعاني وتحديد المطالب دون حاجة للنقل؟ هل لل"عباقرة" وأصحاب "الذوقٍ والكشف وإلإلهام" قدرةٌ خاصة على نظم التصورات عن الله والكون والحياة والإنسان في منظومة فلسفية شاملة؟ هل التعبير عن معاني الحق والخير والجمال حكرٌ على النُخب وليس للعامة إلا أن يقفوا عند عتبات هذ التعابير؟!

إن أولوية هذين المصطلحين – الوحي والوعي- في وصف الصلة بين مراد الله وفهم الإنسان، قائمٌ على أمور عدة، يمكن إيجاز بعضها في:

* انسجام هذه الصلة مع قانون الخلق والأمر الإلهي.
* أن الوعي هو فرعٌ عن نظام وجود وكينونة الإنسان.
* أن الوعي هو أول فعلٍ بشري في تلقي الوحي الخاتم.
* أكمل حال بشري في تلقي الوحي هو وعيُ النبي عليه الصلاة والسلام به.
* أن الوعي في لسان الوحي هو عَقْلُ القلب عن الله، وليس عن أحدٍ سواه.
* أن الوعي معنى زائد على مجرد الحفظ، بل هو الحفظُ بحقه.
* الوحي نصٌ وهداية، والوعي فهمٌ ودراية، ولا ينفك عنهما عقل إنسان؛ إما بالقرب منهما بانسجام، أو بالبعد عنهما بنشاز.
* ظهور علاقة ثنائية متلازمة، سببها التفاضل، وليس التكافؤ، وقانونها الاهتداء، وليس الاعتلاء.
* أن هذه الصلة فطريةٌ أولية غير متكلفة ولا متناقضة.
* أن هذه الصلة متجددة في هداية الوحي، وفي دراية الوعي، كلما تجدد الظرف والحال.
* أن هذين المصطلحين ألطف على الأسماع، وأدعى للانتباه.

هذا فقط إجمالٌ لقانون الصلة، وإلا فإننا بحاجة لتجلية الموضوع بشكل أعمق في التأصيل، وأقرب في التناول؛ لنستطيع بعد ذلك صياغة قوانين فرعية أو نظريات ومسائل تُبنى على جوهر هذه الصلة، لابد من استحضار هذا كله، والبناء عليه، بخطابٍ برهاني ومزاجٍ يقيني، يعلو على الخطاب الجدلي والمزاج الظني.

## خامساً: آفاق الصلة:

إن المقولات التفسيرية، والاجتهادات المفهومية، والمعالجات التاريخية القاصدة لترجمة هداية الوحي في ميادين الحياة والإنسان والمجتمع ليست الكمال ولا التمام ولا عين رضى الرب سبحانه الذي ارتبط بجوهر الدين أو بالدين الأساس مهما حققت من ذلك ودأبت إليه: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإسْلامَ دِينًا ﴾ المائدة: 3، وإلا لكانت جزءاً من الدين ولما تأخر ظهورها إلى ما بعد موته عليه الصلاة والسلام، ولصح أن نصف كلمات أصحابها بالصدق المطلق والعدل المطلق وهذا بداهةً لا يكون إلا لله تعالى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾، ولكنها في حقيقة الأمر محاولات واجتهادات في تجديد المفاهيم القائمة على النص الإلهي ليس إلا، وهي مفتقرةٌ دائماً للتفكير والتحرير، وإعادة التنظير والتسطير، والانتصارُ لها إنما يكون لقربها النسبي من الحق المطلق، والاتصال السببي بالعدل المطلق، وهذه سمة فَهْمِ المجددين من أئمة هذا الدين لجهود ومقولات المتقدمين والمتأخرين، لاسيما والجهد البشري– قولاً وعملاً وحكماً وموقفاً - من طبيعته أن يعلو في زمن ويدنو في زمن، وأن يكون كمالاً في حال ونقصاً في حال، وأن يكون له القياد في مكان والتبعية في مكان، وأن يكون صافياً عذباً من إنسان ومشوباً كَدِراً من إنسان، ولا علاقة لهذه الأحوال والأوصاف والطبائع بمسألة الحق والحقيقة، ولا الوحي والدين، إذ أن الحق متعالي، والدين كاملٌ تامٌ مرضيٌ عنه عند ربنا عز وجل، ولا يلزم منه أن يكون كذلك في تمثلاته التاريخية، ولا تجلياته البشرية، ولا يمكن أن يقول عاقلٌ بالمطابقة التامة بين جوهر الدين الإلهي ومظهر التدين البشري، ولا بانطباق الحقائق بتمامها على بعض التجليات في مكان وزمان وحال دون بقية الأمكنة والأزمنة والأحوال، ولا الموافقة الكاملة بين المطالب السماوية والاستجابات الأرضية، ولا حلول الشرائع في الطبائع، بل المسألة غير ذلك، المسألة حيوية غير جامدة، ومتدرجة غير محصورة في درجة، ونسبية غير مطلقة، وعرضية غير جوهرية، وحالية غير ذاتية، أي أن التطابق والتماثل والموافقة تكون في مقال دون مقال، وحال دون حال، وظرف دون ظرف، وأما افتراض غير ذلك في حال غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهو وهمٌ يقود إلى وهم، وغفلةٌ في نظر المجتهد تقود إلى عقيدةٍ في سلوك المقلد، وتجاوزٌ في عمل الجماعة يُفضي إلى خلل في توجه الأمة، وهذا مما يفسر صعوبة تجديد الوعي والعودة لأصل الدين ومفاهيم الوحي، مع أن دلالات الوحي عظيمة في ربط الإنسان بالله، حتى أن مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام –على جلالة قدرهم وعلو كعبهم- انحصرت في البشارة والنذراة! {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: 165]، بل إن مفاهيم التعليم والتزكية والهداية والاتباع المتعلقة بهم عليهم الصلاة والسلام لم تأتِ مطلقة بل مقيدة {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الأحقاف: 9]، وفي التعليم والتزكية قُيد الموضوع بآيات الله وكتابه {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: 129]، وفي الهداية {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: 56]، هذا في المفاهيم والمعاني، وأما في الكلام والألفاظ والمقولات، فلم يُزكَّ منطق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمطابقته للوحي إلا ما كان في حق محمدٍ صلى الله عليه وسلم: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)} [النجم: 3، 4]، وفق منظومةٍ من الضمانات الإلهية العظيمة التي كانت ترعاه في الحكم والاجتهاد وتحميه من التقول على الله، {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47)} [الحاقة: 44 - 47]، {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75)} [الإسراء: 73 - 75]، {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 145]، {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة: 120]، {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ} [الرعد: 37]، إن كل قولٍ هو دون كلام الله، وكل فهمٍ هو دون مراد الله، وكل وعيٍ هو دون وحي الله، والعبرة في ذلك كله بالعقل عن الله، وتأصيل الفهم بكلامه، وتجديد الوعي بوحيه.

وعليه فلا يمكن القول في إرثنا الثقافي الفكري، لاسيما الذي يكثر حوله التنازع، أن الجدل فيه محسوم، والنظر معلوم، والتجديد معدوم !! إذ أن هذا ادعاء ليس من روح الوحي، ولا يقبله الوعي، بل إذا كانت هذه الجدليات تاريخية، وثبتت الحاجة لتجديد النظر فيها، وتقريبها، وتعميقها، أو حتى نقدها ومراجعتها، والتراجع عنها، فإنه من الضروري ألا يتصلب نظر العلماء، ولا أن يُصرّ قادة الفكر على ملازمة الخندق الواحد عندما يحمى الوطيس، وتقوى مناورات العقول وتدافعات الأفكار، بل علينا أن نُقدِّر لكل ظرفٍ قدْره، وأن نكون في صف التجديد لا في خندق الجمود والتمجيد، بل علينا أن نتراجع قليلاً – إن لزم الأمر- لرقعةٍ أوسع من المتفق عليه، وحدٍ أكبر من المشترك، ومعيارنا في ذلك كله حماية مفاهيم الوحي والذود عن حياضها اللغوية والمنطقية والتأويلية والتنزيلية، لا رعاية الشخوص والذوات والبُخل بماء وجهها أمام تجدد العقول والظروف؛ لأن المطلوب الشرعي في الثبات على الحق يدافعه مطلوب أعلى وهو: تَبَيُنْ الحق والاقتراب منه أكثر من ذي قبل.

إن الوعي المهتدي بالوحي: هو حالة هدايةٍ إدراكية، متجددةٍ ومتمددة، تَقْصِدُ لاستيعاب الحقائق وتجلياتها، والكليات وتمثلاتها، والمقاصد وموجباتها، في خلق الله وأمره، ببصرٍ وبصيرةٍ، وبعلم وخشية وعلى قدر الطاقة.[[27]](#footnote-27)

الوعي بهذا المفهوم ليس جديداً، بل هو تجديدٌ لصلة النص الإلهي بالفهم البشري الحياتي على الأرض، وهذا النوع من التجديد له آفاقٌ ونتائج كبيرةٌ وكثيرةٌ ولاشك، يمكن التنبيه على بعضها في ختام هذا البحث، منها:

* قوة هذه الصلة بين الوحي والوعي في منح الإنسان القدرة على التعامل مع العقل بنظامه التوسعي الإبداعي، ونظام الحياة التطوري المتنوع، ونظام الظرف المتجدد زماناً ومكاناً وحالاً.
* ارتباط الوعي الإنساني بالوحي الإلهي ليس سبباً للمحدودية والانغلاق كما قد يُظن، بل لن يكتسب الإنسان حريةً، وسعةً، وطلاقةً حقيقية منسجمةً مع الكون والحياة إلا إن كانت صلته صحيحة بهداية الوحي ونظام الوعي.
* القرآن الكريم ليس على درجة واحدة من الوضوح في الدلالة، وليس الناس فيه على مستوى واحد من الفهم والإدراك، ولا يمكن حصر معانيه ودلالاته ولا حَدُّ آياته ومعجزاته، بل على النقيض من ذلك، وفي ذلك من الحكم والغايات والعبر الشيء الكثير الذي نبه عليه بعض العلماء كالزمخشري والطاهر بن عاشور والطبطبائي وغيرهم[[28]](#footnote-28) ، وذلك عند حديثهم عن مسألة المحكم والمتشابه الواردة في وصف آي الكتاب، و مما له علاقةٌ بموضوعنا قولهم: إن في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه وردّ المتشابه إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند اللَّه ما لا يحصى.
* قالوا: وفيه حث العقل على البحث والتنقير وفق هذه الصلة المتجددة، لئلا يموت بإهماله بإلقاء الواضحات التي لا يعمل فيها عامل الفكر، فإن العقل أعز القوى الإنسانية التي يجب تربيتها بتربية الإنسان، وتوسعيها بتوسع حياته على الأرض.
* انسجام هذه الصلة مع قانون التجديد المرتبط بالوحي الخاتم، إذ أنه لا وجهة فيه لنصوص جديدة ولا لتطور في النص، بل بمفاهيم متجددة متعلقة ومتشبثه بالنص الوحيد، يقول الطاهر بن عاشور: "من أجل هذا كانت صلوحية عباراته لاختلاف منازع المجتهدين، قائمة مقام تلاحق المؤلّفين في تدوين كتب العلوم، تبعاً لاختلاف مراتب العصور"[[29]](#footnote-29).
* قدرة هذه الصلة على كسب ثقة الواقع، والرهان على المتوقع، على خلاف الصلات الجدلية التي لا يخبو بريقها إلا حين تنتقل من الفضاء الجدلي إلى الواقع الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، ولا تفقد توازنها إلا حين يُدفع بها إلى الشارع لتثبت وفاءها للماضي وقيامها بالحاضر وصلاحها للمستقبل.
* وفاء هذه الصلة بحاجة العقل؛ إذ أن العقل بحاجة لمفاتيح المفهوم وليس لأقفال المعنى! بحاجةٍ للمفاهيم المركزية لا المؤطرة، بحاجة للنور الإشعاعي لا الصندوق المضيء، وهذا الوفاء في هذه الصلة هو الروح التي قال الله فيها: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)} [الشورى: 52، 53].
* أهليةُ هذه الصلة للنظر في التراث وتقييمه بمعاييرها الكُبرى: تحكيم الوحي في كل جدل مفهومي – انتفاء الحرج من ترجيح بعض المفاهيم على بعض – التسليم بهداية الوحي المطلقة وتجدد الوعي بإطلاق.

هذه بعض الإشارات والتنبيهات إلى القوة الكامنة في هذه الصلة لصناعة وصياغة عقل الإنسان، والتي لاتحتاج إلا أن يصغي الإنسان لمصدرها بتلهفٍ وأدب، وأن يكون قلبه وعاءً لمفاهيمها، وذهنه متحركاً بأساليبها، وأن يحذر من التقديم بين يدي الله، لعله أن يلهمه الصواب ويدله على الحق وألا يكون من الغافلين عن نوره وهدايته، قال الله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } [ق: 37]، وعنِ عبد الله بن عمرو، أَن رسول الله -صلي الله عليه وسلم - قال: "القلوب أوْعيةٌ، وبعضها أوْعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل، أَيها الناس، فاسألَوه وأَنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبدٍ دعاه عن ظهرِ قلبٍ غافل".[[30]](#footnote-30)

أعترف في الختام بأن هذه الأسطر ماهي إلا إثارةٌ للتفكير وتحفيزٌ لإعادة النظر، وإنني أعي حجم المجازفة ولو على سبيل الادعاء بالقول بأن مسألةً مثل مسألة "العقل والنقل" بحاجةٌ للتجديد على مستوى المصطلح والمفاهيم والقضايا التابعة لها، ولولا ما وجدت من دلالات لغوية، واستعمالات قرآنية نبوية، لما يممت وجهي تلقاء هذه الرؤية، ولما قصدتُ إلى تنبيه من غَفَلَ عنها.

1. - بتصرف: المرزوقي، أبو يعرب، مقال فكر ابن تيمية الإصلاحي وأبعاده الفلسفية، منشور 2014 على الانترنت. [↑](#footnote-ref-1)
2. - أنظر مايقابله من الوحي العام، النبوات لابن تيمية (2/ 690). [↑](#footnote-ref-2)
3. - مناهل العرفان في علوم القرآن (1/ 63). [↑](#footnote-ref-3)
4. - عتر، د.حسن ضياء الدين، وحي الله، دار المكتبي، الطبعة الأولى 1419، (ص:98). [↑](#footnote-ref-4)
5. - العين (2/ 272). [↑](#footnote-ref-5)
6. - هو الليث بن نصر بن سيار الخرساني تلميذ الخليل بن أحمد وصاحبه، والذي أخرج كتاب العين للخليل وزاد عليه كما يرى بعض الباحثين على خلاف مايرى الأزهري من نسبة الكتاب إلى الليث. [↑](#footnote-ref-6)
7. - تهذيب اللغة (3/ 166). [↑](#footnote-ref-7)
8. - مقاييس اللغة (6/ 124). [↑](#footnote-ref-8)
9. - مقاييس اللغة (3/ 357). [↑](#footnote-ref-9)
10. - الطبري، ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن ، ت شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420هـ (23/ 579). [↑](#footnote-ref-10)
11. - المسالك في شرح موطأ مالك (3/ 390). [↑](#footnote-ref-11)
12. - المناوي، عبدالرؤوف بن تاج العارفين، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة: الأولى،(6/ 283). [↑](#footnote-ref-12)
13. - صحيح البخاري (2/ 176). [↑](#footnote-ref-13)
14. - أنظر مثلاً: مطالع الأنوار على صحاح الآثار، أبو إسحاق ابن قرقول (المتوفى: 569هـ) (6/ 226). [↑](#footnote-ref-14)
15. - صحيح البخاري (1/ 6). [↑](#footnote-ref-15)
16. - ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، 1379، عناية وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي (1/ 21). [↑](#footnote-ref-16)
17. - ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، (1/ 125). [↑](#footnote-ref-17)
18. - الجزري، ابن الأثير، جامع الأصول في احاديث الرسول، ت عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة الحلواني الطبعة الأولى، (1/ 100)، قال المحقق: أخرجه الترمذي رقم 2659، وابن ماجة 1/84 من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وإسناده صحيح. [↑](#footnote-ref-18)
19. - جامع الأصول (1/ 102). [↑](#footnote-ref-19)
20. - أنظر جامع الأصول، الأحاديث رقم: 2050 – 5025 – 7021 – 8400 [↑](#footnote-ref-20)
21. - الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، ت بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، 1998، (6/ 244). [↑](#footnote-ref-21)
22. - فتح الباري شرح صحيح البخاري (178/ 12). [↑](#footnote-ref-22)
23. - الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود، تفسير الكشاف، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، (4/ 600). [↑](#footnote-ref-23)
24. - صحيح مسلم: كتاب الجنّة وصفة نعيمها ، ح: 5109 [↑](#footnote-ref-24)
25. - المسمى عند العلماء بعالم الذر، والمذكور في القران الكريم في سورة الأعراف، (آية: 172). [↑](#footnote-ref-25)
26. - صحيح البخاري (2/ 176). [↑](#footnote-ref-26)
27. - أعكف من زمنٍ على دراسة مفهوم الوعي وفق هداية الوحي، وأسأل الله التيسير. [↑](#footnote-ref-27)
28. - يراجع: الزمخشري في الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 338)، والطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير (3/ 157)، والطبطبائي في تفسير الميزان 3/ 56- 59. [↑](#footnote-ref-28)
29. - ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الطبعة التونسية، دار سحنون، 1997 (3/ 158). [↑](#footnote-ref-29)
30. - الشيباني، أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ت أحمد شاكر، دار الحديث، ط الأولى 1416هـ (6/ 213). [↑](#footnote-ref-30)